الإسلام بخرائط مواجهة

تصدير وتقديم: فهمي هويدي

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

الطبعة الأولى ١٩٩٧م

فريد هاليداى

الإسلام وخرافة المواجهة

الدين والسياسة فى الشرق الأوسط

ترجمة

محمد مستجير

الناشر : مكتبة مدبولى

هذه هى الترجمة الكاملة لكتاب

Islam and The Myth of Confrontation

Religion and Politics in The Middle East

بقلم *Fred Halliday*

الصادر عن دار *I. b. Tauris*

فى عام ١٩٩٦

فريد هاليداى

أستاذ «العلاقات الدولية» فى مدرسة لندن للاقتصاديات، صدرت له كثير من الكتب من بينها «شبه الجزيرة العربية دون سلاطين» (١٩٧٤) و «ايران .. الديكتاتورية والتنمية» (١٩٧٨) و«صناعة الحرب الباردة الثانية» (١٩٨٣) و «الحرب الباردة والعالم الثالث» (١٩٨٨) و«الثورة والسياسة الخارجية: حالة اليمن الجنوبى، ١٩٦٧ – ١٩٨٧» (١٩٩٠) و«العرب فى المنفى، الجاليات اليمنية فى الحضر البريطانى» (١٩٩٢) و«إعادة التفكير فى العلاقات الدولية (١٩٩٤) فضلا عن كثير من الأبحاث والمقالات الصحفية.

إلى ذكرى

مانوشيهر كالنتارى

شكر الله باكنچاد

عبد الرحمن قسم الله

سيد سلطانبور

الأصدقاء والديمقراطيين الايرانيين

وخصوم ديكتاتورية مكرسة دينيا

شـــكـــــر

تعكس الفصول التالية مساعدة كثيرين فى الشرق الأوسط وخارجه ممن منحونى وقتهم وتفهمهم أكثر من ثلاثة عقود. وأود أن أقدم شكرا خاصا إلى نيكى كيدى وكنعان مكية وأفشانى ناچامبادى وروجر أوين وچيم بول وچوستورك وسامى زبيدة لنظراتهم الثاقبة إلى الشرق الأوسط المعاصر، وفى المقام الأول إلى ماكسين مولينو – زوجتى – التى قاسمتنى كثيرا من الأحداث والمناقشات التى تناولتها هذه الصفحات. وكانت إيما سنكليرويب بدار آى . بى . توريس هى كل ما ينبغى أن يكون عليه الناشر – مشجعا وملحا وصبورا – ولولاها لما رأى هذا الكتاب النور. وأدين بالشكر كذلك إلى أولئك الذى استجابوا بسخاء إلى حاجتى إلى التوجيه فى مجال دراستهم، وإلى مساعدات خاصة فى البحث – كاترينا دالاكورا وبرنارد چونسون وريتشارد سول وآشين ڤانيك. وهناك كثيرون فى الشرق الأوسط نفسه أود أن أشكرهم، لكن الظروف السائدة فى بلدانهم، والتى لا تتعلق كثيرا بالدين وإنما بالطغيان، تجعل هذا مستحيلا فى الوقت الحالى.

ويود المؤلف والناشر أن يشكرا الجهات التالية على سماحها بنشر مواد سبق أن نشرت فى أشكال أخرى وتظهر هنا فى صورة منقحة : دار نشر ماكميلان، مطبوعات جامعة مالطة، «ذى ريڤيو أوف انترناشيونال ستاديز»، مركز الدراسات الألمانية والأوروبية، جامعة كاليڤورنيا، الملحق الأدبى لصحيفة التايمز، «بولتيكال ستاديز»، «ذى بريتيش چورنال أوف ميديل ايسترن ستاديز».

وقد نشرت صورة أولى من الفصل الأول فى راى بوش (تحرير) «النظام العالمى» (كمبريدچ: بوليتى، ١٩٨٧).

ونشر الجانب الرئيسى من الفصل الثانى أولا فى «چورنال أوف انترناشيونال أفيرز» (كولومبيا، نيويورك)، شتاء ١٩٨٢ / ١٩٨٣، المجلد ٣٦، العدد ٢، وأعيد

نشره فى فريد هاليداى وحمزه العلوى (تحرير) «الدولة والايديولوجية فى الشرق الأوسط وباكستان» (لندن : ماكميلان ١٩٨٨)، وأدرجت مواد اضافية من «سياسة الأصولية الاسلامية : إيران وتونس وتحدى الدولة العلمانية» فى ستانلى فيورنى وڤيكتور ماليا – ميلانيز (تحرير)، و «مالطه : دراسة حالة فى التيارات الدولية المتقاطعة» (ڤاليتا : مطبوعات جامعة مالطة، ١٩٩١) وأعيد نشره فى أكبر أحمد وهاشنجز دونان (تحرير) «الإسلام والعولمة وما بعد الحداثة» (لندن : روتليدج، ١٩٩٤).

ونشرت صورة مبكرة من الفصل الثالث فى «ريڤيو أوف انترناشيونال ستاديز»، المجلد ٢٠، العدد ٢، أبريل ١٩٩٤.

ويجمع الفصل الرابع بين مواد نشرت فى الأصل فى بيقرلى كراوفورد وبيتر شولز (تحرير) «المآزق الأوروبية بعد ماستريشت» (بيركلى : مركز الدراسات الألمانية والأوروبية، ١٩٩٣) والملحق الأدبى لصحيفة التايمز، ١٤ – ٢٠ أبريل ١٩٨٩.

وظهرت صورة من الفصل الخامس فى «بوليتيكال ستاديز»، يوليو ١٩٩٤. ويستند الفصل السابع إلى نص المحاضرة السنوية للجمعية البريطانية لدراسات الشرق الأوسط التى ألقيت فى مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية، لندن، فى ٢ مارس ١٩٩٣. وكانت صورة أولى منها قد نشرت فى «ذى بريتيش چورنال أوف ميديل ايسترن ستاديز»، المجلد ٢٠، العدد ٢٢، ١٩٩٣.

تمثل الفصول التالية جزءا من عملية تأمل طويلة فى الشرق الأوسط المعاصر ومختلف طرق التفكير فى هذه المنطقة وتحليلها. وبعض الأفكار التى تتصدى لها كانت أساسا للكتابات عن الشرق الأوسط سنوات طويلة وأثارت بالفعل جدالا كبيرا. وبعضها الآخر -- وليس أقلها شأنا ظهور الحركات الإسلاموية واستجابات المنطقة لنهاية الحرب الباردة – أحدث عهدا، لكنها تتداخل الآن مع المناقشات الأقدم والأطول عهدا.

وقد حاولت أنا نفسى فى دراسات سابقة أن أقدم تحليلات لبلدان محددة فى الشرق الأوسط، أو لفترات فى تاريخ الشرق الأوسط الحديث، وبعض فصول هذا الكتاب تمضى فى هذا الاتجاه [1]. غير أننى سعيت هنا إلى أن أتعرض لبعض مسائل التفسير والتحليل الأوسع، وأن ألقى الضوء وأنا أفعل هذا على الشرق الأوسط المعاصر، وأن أربط دراسة المنطقة بالاتجاهات الأوسع فى العلوم الاجتماعية. وإذا كانت هناك فكرة واحدة تكمن خلف هذه الأبحاث فهى إنكار الإفتراض الشائع بأن الشرق الأوسط حالة فريدة، تختلف تماما عن بقية العالم، وغير مفهومة لمن هم خارجه. إنها محاولة – غير كاملة ومؤقتة بالضرورة – لفهم هذه المنطقة بالنظر إليها داخل هيكل أوسع من العمليات الدولية، وباللجوء إلى نظام فكرى عام الانطباق.

ويركز عدد من الأبحاث على قضية الإسلام باعتباره دينا وباعتباره ظاهرة سياسية فى آن واحد، يعتنقه البعض، ويندد به آخرون. ومن الضرورى أن نميز هنا بين معنيي التعبير، وأن نبحث القضايا المتميزة التى يثيرها كل تعريف. ومن ثم فإنى أود أن أجرى تمييزا واضحا بين: إسلام و «إسلام»؛ والإسلام بالمعنى الأول – أى باعتباره دينا – يعتنق بعض المبادىء الواضحة، يقوم كنسق من الإيمان بما فوق الطبيعة، وما يرتبط بذلك من مسائل الأخلاق والقدر والغاية وتلك مسألة تهم المؤمنين

---

١) «شبه الجزيرة العربية دون سلاطين» ٠هارموندزويرث؛ بنجوين، ١٩٧٤)، و «إيران، الديكتاتورية والتنمية» (هارموندزويرث بنجوين، ١٩٧٨)، ومع ماكسين مولينوز «الثورة الأثيوبية» (لندن فيرسو، ١٩٨٢)؛ و «الثورة والسياسة الخارجية : حالة اليمن الجنوبى، ١٩٦٧ – ١٩٨٧» (كمبريدج : مطبوعات جامعة كمبردج، ١٩٩٠)، و «العرب فى المنفى، الجاليات اليمنية فى الحضر البريطانى» (لندن : آى . بى . توريس، ١٩٩٢).

واللاهوتيين وليست موضوعا للفصول التالية : فالحق أننى لست مؤهلا لمناقشة الإسلام بهذا المعنى اللاهوتى، ولا أدعى القيام بذلك. أما عن المعنى الثانى للتعبير – «الإسلام» باعتباره نظاما اجتماعيا وسياسيا – فينبغى أن يتضح سريعاً أننى لا أعتقد أننا نكسب الكثير بالنظر إلى الواقع الاجتماعى – السياسى الذى ينطبق عليه هذا التعبير وكأنه جزء من ظاهرة واحدة. فليس هناك الكثير مما يمكن شرحه أو مدحه أو شجبه – كموضوع للتحليل الاجتماعى والسياسى أو كقوة فى الشؤون الدولية – بالرجوع إلى «إسلام» موحد. وما نحتاجه هو دراسة كاملة لمجتمعات ونظم سياسية بعينها، وللاستخدامات – التى اختلفت باختلاف الزمان والمكان – للرموز والمبادىء الإسلامية، «فالإسلام» كموضوع للدراسة ينبغى أولا أن نذيبه لنجعله شيئاً عينياً فى دراسة أحداث وأوقات وأماكن بعينها.

وخلف هذه القضايا التى تبرز فى الشرق الأوسط، وأن لم تكن خاصة به – توجد أفكار أوسع فى التحليل الاجتماعى لاغنى عنها حاليا فى الدوائر الأكاديمية ودوائر السياسة العامة، وتلقى الضوء على المناقشة فى هذا الكتاب. ومن هذه القضايا مسألة ما إذا كانت العلاقات الدولية المعاصرة تتركز أولا تتركز على ما أسماه صمويل هانتنجتون «صدام الحضارات» الذى يتخذ فيه النزاع بين الدول، بصورة متزايدة، شكل منازعات حضارية، وإنقسام العالم إلى كتل متنافسة[٢]. وهناك بالحتم الكثير مما يروق فى هذا التدليل، فكثير ممن يتحدون السيطرة الغربية، أو ممن يسعون إلى الدفاع عنها، يفعلون ذلك بالحديث عن «الحضارة» كوسيلة للتوجيه وإضفاء المشروعية. ويبدو معنى التاريخ لكثير من هؤلاء الناس أنفسهم بعبارات من مجموعة من هذه المنافسات ثنائية الأقطاب – ما أسماه أرنولد توينبى منذ وقت طويل «التحدى والاستجابة». ومع انقضاء الحرب الباردة، يبدو أن ثمة نزاعات أخرى ستحل محلها من بينها النزاع بين الإسلام والغرب. وقد يبدو ظهور «الخطر الإسلامى» مثل هذه الحالة بالتحديد، تماما كما أن هناك كيانا متزايد من الكتابات يربط بين قوة الشرق الأقصى الاقتصادية والاستراتيجية النامية وبين القيم «الكونفوشيوسية».

---

٢) صمويل هانتنجون «صدام الحضارات؟»، فورين آفيرز، صيف ١٩٩٣.

غير أن لمثل هذا النهج – رغم ما يتسم به من إغراء – حدوده. وفى المقام الأول ليس واضحا بأى حال أن الاختلاف الحضارى كان أساساً للنزاع الدولى فى التسعينات أو فى أى وقت آخر، فالنزاعات التجارية بين اليابان والولايات المتحدة، أو المنافسات على النفوذ بين روسيا والدول الغربية، ليست لها سوى علاقة بعيدة بالحضارة. وبالمثل فإن النزاعات التى تنغمس فيها دول الشرق الأوسط حول أسعار النفط أو الأسلحة النووية أو الأراضى مثلا تتضمن شواغل دنيوية صريحة. والأهم من ذلك أن تعبير «الحضارة» نفسه يثير تساؤلات، فقد استخدم فى الأصل – فى أوائل الفترة الحديثة – مقابلا للبربرية أو الوحشية [٣]. ويفترض الاستخدام التالى – الذى يشير إلى كتل ثقافية أو دينية، أن مثل هذه الكيانات توجد كمعطيات متماسكة تاريخية، وأن من الممكن تعبئة قوى دولية حولها. وترمى الفصول التالية إلى ايضاح أن ما قد يبدو لمن هم خارج مجتمع ما أو ما يعرضه ذرائعيا من هم داخله – باعتباره حقائقا جوهرية خالدة هى فى الواقع ابتداعات ذات أصل سياسى واجتماعى حديث، خلقت واستخدمت لأغراض معاصرة، «فالحضارة» مثل الأمم والتقاليد والطوائف – تعابير تدعى واقعا وحجية هى ذاتها مثار تساؤل، وتستند إلى تقاليد يتضح – عند الفحص الدقيق – أنها خلْق معاصر.

والقضية الثانية التى يثور بشأنها جدال كثير فى الفكر الاجتماعى المعاصر هى قضية الكلية والنسبية : وهى ما إذا كان من الممكن – أو المرغوب فيه – تحليل مختلف المجتمعات وتقييمها على أساس معايير متشابهة أم أن علينا أن نقبل أن لكل جماعة وأمة معانيها وقيمها التى تستبعد مثل هذا «السرد» الكلى فقد تعزز نقد الكلية وهو نقد موجود فى الفكر الفلسفى منذ عهد طويل – فى السنوات الأخيرة من ثلاثة مصادر : من أولئك الذى يتحدون مكانة الغرب من زاوية ما يمكن أن يسمى بعبارة واسعة موقفا «معاديا للامبريالية»، أو متعدد الحضارات ومن أولئك الذين ينكرون – مثل أنصار ما بعد الحداثة – أولوية كل «سرد كبير» أو مجموعات المفاهيم الموحدة، ومن فلاسفة الأخلاق الذين ينكرون أولوية العقل، وخاصة فى

---

٣) رايموند ويليامز «كلمات رئيسية» (لندن، فونتانا / كروم هيلم، ١٩٧٦)، ص ٤٨ – ٥٠

صورته التنويرية. وبشكل عام تدعو هذه المصادر إلى تفادى الخطابات الكلية، وقبول تنوع الأصوات فى العالم المعاصر. وهم يقولون أن علينا أن ندرك أنه خلف كل خطاب كلى تكمن هياكل للسيطرة والقوة تقحم نظام مجموعة من الدول على غيرها من المجاميع، وتفرض عقلانية زائفة على الخبرة الإنسانية.

وسرعان ما سيتضح فيما يلى أننى أتعاطف مع جزء من هذه الحجج، وأنفر بوضوح من جزئها الآخر، فتعدد الأصوات واقع، وواقع مرغوب فيه سواء داخل المجتمعات أو فيما بينها، وهناك كثير من السياقات التى ينبغى الترحيب فيها بمثل هذا التعدد، فالقوة ومفهوم العقل القائم على الهيمنة قد صنعا الكثير لتشويه فهمنا للعالم المعاصر، وللقضايا الأخلاقية المتجسدة فيه. غير أن قولنا هذا لا يستلزم بالضرورة الزعم بأن كل الحجج متساوية فى صحتها، التحليلية أو الأخلاقية، أو أنه ليست هناك قضايا يكون من المناسب فيها اللجوء إلى مفهوم الكلية، فالعبارات قد تكون أكثر أو أقل صحة، والقيم مرغوبة بدرجة أكثر أو أقل. وقبول التعدد لا يستبعد بذاته مثل هذه الأحكام. وهكذا يبقى من الممكن أن نسعى إلى اتفاق على تفسيرات لسبب وقوع حادث معين – حرب، ثورة، اتجاه اجتماعى – فى ذات الوقت الذى ندرك فيه الاختلاف فى نقاط البدء وفى المنظورات. وبالمثل هناك قضايا أخلاقية – وخاصة المتعلقة بالسلوك أثناء الحرب وبحقوق الإنسان – يمكن فيها تأكيد المعايير الكلية والدفاع عنها.

وترتبط بذلك أوثق الارتباط القضية التى يكثر الجدال حولها والمتعلقة بضرورة الإصغاء إلى أصوات من كانوا مستبعدين من الإعتبار من قبل وليس أقلها أصوات شعوب العالم الثالث. وإعادة التفكير المستمرة والدقيقة فى التفسيرات السائدة للتاريخ والفكر السياسى حتى لمراعاة (هيرارشية) القوة فى العالم المعاصر أمر مطلوب وممكن فى آن واحد، وقد بدأت بالفعل فى بعض المجالات، فكثيرا جداً ما خلقت احتكارات القوة احتكارات للمعرفة، ويتجلى هذا فى دور الإمبريالية فى خلق النظام الدولى، وفى التحيز الجنسى فى عرض ما هو ابتداع إنسانى مشروط باعتباره الطبيعى، وفى كلتا الحالتين – كما فى كثير غيرهما – آن الأوان منذ وقت طويل لنقد هياكل القوة

واحتكارات المعرفة القائمة. غير أن من الخطأ أن نمضى من قبول الأرثوذكسيات القائمة إلى الزعم بأن كل البدائل جديرة بالترحيب، أو أنها متساوية فى صحتها. وفى المقام الأول فإن قولنا إن القوة والرغبة فى الابقاء عليها أو تبريرها يمكن أن تشوها معرفتنا ولغتنا لا يستتبع أوتوماتيكيا قبول أن العجز، والرغبة فى علاجه والجهود التى تبذل لذلك، ضمان للصحة، سواء من الناحية التفسيرية أو الأخلاقية، فإذا حل محل توفير السلطة قبول غير نقدى لكل صوت «من أسفل»، فلن يتحقق سوى تقدم ضئيل.

فظرف تعرض جماعة أو فرد للقهر يمكن بذاته أن يولد أشكاله المشوهة من الإدراك : التاريخ الأسطورى، والحقد والشوفينية تجاه الآخرين، ونظريات التآمر من كل الأنواع، وخيالات التحرر غير الواقعية. ومن المهم فى الوقت نفسه أن نتشكك فى البداية فى جدول أعمال ومصالح أولئك الذين يدعون التحدث باسم الصامتين : فمن أكثر دروس القرن العشرين حدة أن مشاريع التحرر أو الخطابات المرتبطة بها، قد تؤدى فى أيدى من ينصبون من أنفسهم قادة إلى أشكال بديلة من القهر والإنكار. وقد تقدم أشكال جديدة من التشوه تحت ستار الأصالة من أسفل. وقد أوضحت أنواعها العلمانية – إيدلوجيات اليسار التسلطية، النزعة القومية – وأنواعها الدينية – مختلف الأصوليات والطائفيات – هذا الأمر بما يكفى. ومن ثم فإن القوى التى كثيرا ما تعبأ ضد ما هو قهرى وعالمى – المحلى، الأصيل، الطائفى – قد تخفى من البلبلة والذرائعية والقسر قدر ما تخفيه الهياكل التى تدعى تحديها.

وتزداد أهمية الحاجة إلى حسن التمييز فى هذا الشأن لأن العبارات التى كثيرا ما تعرض فيها الحجج – «الغرب» مقابل «الشرق»، أو فى الواقع «الغرب» مقابل «البقية» – هى ذاتها مضللة. وكما أشارت مناقشة تعبير «الحضارة» بالفعل فإننا لا نتعامل مع عامل من التقاليد السياسية المتباينة : فالتعابير التى يتم بها تحدى لغة والقيم الأوروبية هى ذاتها تعابير مأخوذة من التقاليد الأوروبية – الدولة القومية، الحقوق، الاستقلال، السيادة، الديمقراطية. وتماما كما أن المنافسةالاقتصاديه الدولية تتعلق بنزاعات حول التجارة والاستثمار والأرباح داخل نظام عالمى خلقته القوى الأوروبية فسيتضح عند البحث الأوثق أن الجدال السياسى عن «الغرب» مقابل

«البقية» هو نزاع بين تفسيرات وأنواع مختلفة من التقاليد السياسية الغربية ذاتها. وفى الوقت نفسه فإن معاملة «الغرب» – وأوروبا بوجه خاص – ككل غير متمايز أمر ساذج تاريخيا، فتاريخ أوروبا، والنظم السياسية التى ولدّها، هو ذاته متناقض، بمعنى أنه أنتج أفكارا لكل من القهر والتحرر. وقد كان التاريخ الأوروبى ذاته نتاجا لنزاع بين قوى سياسية واجتماعية. فأوروبا التى فرضت نظامها السياسى والاقتصادى على العالم قد طورت أيضاً إنعقاقها الداخلى – بتكلفة هائلة خارجياً وكذلك داخلياً عبر حروب القرن العشرين العالمية وما صحبها من نزاعات ايديولوچية. وطرح الخيارات عن القيم السياسية، أو أنواع السرد التاريخية المرتبطة بها، بعبارات نهج «أوروبى» مقابل نهج غير أوروبى، يصور الأول باعتباره «مركزيا عرقيا» والثانى باعتباره متحررا من مثل هذه التداعيات الخصوصية، هو إنكار للتنوع وللنزاع القائم فى كل تاريخ، هو إنكار للارتباط بين السيطرة والمقاومة الماثل فى كل المجتمعات، أوروبية كانت أو غير أوروبية. ومن ثم فإن للحجج المترتبة غاية مزدوجة، فإذا كان من الممكن أن تخدم إلى حد ما فى تحدى التحاليل الأكثر تبسيطاً وتضليلا للحركات الإسلامية والشرق الأوسط المعاصر فإنها قد تخدم أيضاً فى أن توضح – استنادا إلى هذه المنطقة – حدود بعض النظريات العامة التى يفترض أنها صالحة عالمياً.

ومن ثم فان «خرافة المواجهة» التى يشير إليها عنوان هذا الكتاب هى خرافة مدعمة من جانبين يبدوان فى الظاهر متناقضين – من معسكر أولئك الذين يسعون فى الغرب أساسا – ولكن ليس فيه وحده – إلى تحويل العالم المسلم إلى عدو آخر، معسكر من يدعون – داخل البلدان الإسلامية – إلى مواجهة مع العالم غير المسلم وخاصة الغربى. وهى تتضمن تدليلا ينتقد أيديولوچيات أولئك الذين سعوا طويلا إلى السيطرة على العالم المسلم ولكنه ينتقد أيضاً الكثير مما يقدم على أنه رد «بديل»، «أصلى»، «أصيل» من داخل هذه البلدان نفسها. وبهذا المعنى فلن يلقى الكتاب الترحيب من كلتا المجموعتين من الناس.

غير أن هذا النقد والمقاومة التى تثيرها عادة هذه الحجج – لن يبدد بذاته البلبلة التى تحيط بقضية «الإسلام» فى العالم المعاصر. وهناك سببان رئيسيان لذلك الأول – كما يوضح هذا الكتاب بعدد من الطرق – أن دراسة الخرافات قد تكشف

الطابع الوهمى أو الزائف للخطاب، لكنها أيضاً تزيح القناع عن جدول الأعمال الكامن خلف ترويجها، فخرافات «الخطر الإسلامى» شأنها شأن خرافات الشرعية أو القومية، جزء من البضاعة البلاغية للصراع السياسى، يستخدمه كل ممن يريدون البقاء فى السلطة ومن يتطلعون إلى بلوغ السلطة، وطالما بقيت هذه المصالح فيستمر توليد الخرافات – لإضفاء الشرعية، للتضليل، للإسكات، للتعبئة. وفضلا عن ذلك، ورغم حقيقة أن هذه الخرافات يمكن أن تكشف باعتبارها زائفة، فإنها حالما تولّد وتجد تعبيرا عنها يمكن أن تكتسب حياة خاصة كبيرة، فخرافات الحقد العنصرى مثلا قد تبدأ كأكاذيب يبتدعها كارهو الأجانب لكنها حالما تنقل إلى المملكة السياسية، وتنشر فى سياقات المتوتر العرقى، تكتسب قوة وواقعا كانت تفتقر اليهما من قبل. وثمة عملية مشابهة تحدث مع «خرافة المواجهة» الخاصة بالإسلام، فمثل هذه الخرافات التى روجت ضد المسلمين يتبناها أيضاً الإسلامويون ليبرروا قضاياهم هم. وكل هذا ينبغى أن يقود إلى الحذر بشأن مدى الفعالية التى يمكن أن تكون لنقد الخرافة، وإن كان من المهم وقد قلنا ذلك ألا يمضى أولئك الذى يروجون الخرافة، من أى معسكر كانوا، دون أن يواجهوا تحديا. وهذه – فى الجوهر – هى غاية الفصول القادمة.

الجـــزء الأول

فـــهـــم الـــشـــرق الأوســـــط

- ١ -

الشرق الأوسط والسياسة الدولية

مقدمة : أوهام الخصوصية

فى فترة ما بعد الحرب بدا الشرق الأوسط على الدوام المنطقة الأكثر اضطرابا وازعاجا من الناحية الاستراتيجية فى العالم الثالث كله، فهناك على أى حال - وفى الأزمة حول شمالى إيران فى عام ١٩٤٦ - بدأت الحرب الباردة. وفى أزمة السويس عام ١٩٥٦ وصلت التناقضات بين أوروبا والولايات المتحدة ذروتها، وهدد الاتحاد السوفيتى - للمرة الوحيدة المسجلة - بهجوم صاروخى مباشر على دول أوروبية غربية. وفى عامى ١٩٦٧ و ١٩٧٣ أحدثت الحروب العربية - الإسرائيلية أزمات بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى أخطر من أى أزمة ثارت بشأن الهند الصينية أو أوروبا ولا تفوقها خطورة إلا الأزمة التى ثارت عام ١٩٦٢ حول كوبا. وقدمت الأعوام التالية لعام ١٩٧٠ أحداثا متتالية وضعت الشرق الأوسط فى مقدمة الاهتمام الدولى: زيادات أسعار الأوبك فى ١٩٧١ - ١٩٧٣، الثورة الإيرانية، الآلام الطويلة للحرب الأهلية اللبنانية والغزو الإسرائيلى للبنان، الحرب الإيرانية - العراقية فى ١٩٨٠ - ١٩٨٨، حرب الخليج فى ١٩٩٠ - ١٩٩١. ولعبت الأحداث فيما أسماه بريچنسكى مستشار الرئيس كارتر للأمن القومى «قوس الأزمات»، والذى يشمل أفغانستان وإيران واليمن الجنوبى واثيوبيا، دورا هاما فى بدء الحرب الباردة الثانية فى ١٩٧٨ و ١٨٧٩. وكانت الحرب بين إيران والعراق ثانى أطول حرب بين دولتين فى القرن العشرين، لا تقل سوى شهرين فقط عن النزاع الصينى اليابانى فى ١٩٣٧ - ١٩٤٥. وتضمنت الأحداث التى أعقبت غزو العراق للكويت من أغسطس ١٩٩٠ حتى مارس ١٩٩١ أزمة من أكبر الأزمات الدولية فى فترة ما بعد الحرب - سواء بالنسبة للشرق الأوسط أو للأمم المتحدة. ومن الواضح أن أحداث عقود الحرب الباردة - سواء قسما حدتها من حيث أثرها على العلاقات بين الشرق والغرب، أو تحدى سير السوق الدولية، أو التهديد الواضح للنظم القائمة فى المنطقة -

كانت ذات أهمية كبرى ومتواصلة، سواء للشرق الأوسط نفسه أو للعالم الخارجى، فليس من كبير عجب فى أن يبدو الشرق الأوسط للكثيرين أشد المناطق حرجا وتفجرا فيما بعد عام ١٩٤٥.

غير أن مثل هذا الانطباع يحتاج إلى قدر من التحفظ، وخاصة من حيث المنظور التاريخى، إذ يقال ان الشرق الأوسط كان ساحة قدر من الحروب بين الدول أكبر من أى منطقة أخرى فى العالم فى فترة ما بعد عام ١٩٤٥، وقد تكفلت بذلك الحروب بين إسرائيل والعرب، وغزو العراق لجارتيه، ولكن من حيث المؤشرات الأخرى كانت مناطق أخرى فى العالم الثالث هى الأشد تنازعا: فقد كان الشرق الأقصى هو الذى شهد أكثر النزاعات تكلفة فى النصف الثانى من القرن العشرين، فى كوريا وفيتنام، تليه فى إفريقيا الجنوبية النزاعات فى أنجولا وموزامبيق [1]. وكان الشرق الأقصى أيضاً هو الذى شهد – مقترنا بهذه الحروب – أكبر مستويات الهبة السياسية (وفى المقام الأول فى الصين)، وهو الذى أصبح منذ الخمسنيات موقع أكبر التحولات الاقتصادية، وجزئيا نتيجة للحرب الباردة ذاتها. ومن ثم لم يكن الشرق الأوسط فى أي من هذه المؤشرات الثلاثة – تكلفة الحرب من الأرواح البشرية، ودرجة التعبئة السياسية، وسجل التحولات الاقتصادية – هو أبرز منطقة فى العالم النامى. ومع الاعتراف بأهمية المنطقة للنظام الدولى فى مجموعه فإن هناك حاجة للاحتراس مما يمكن أن يسمى «النرجسية إقليمية»، الاتجاه إلى رؤية مسار الأحداث هناك باعتباره فريدا فى دراميته بالمقارنة بمناطق العالم الأخرى.

وتكشف تغطية هذه المنطقة – سواء أكاديميا أو صحفيا – عن تشويه آخر، هو

---

(١) كلفت الحرب الكورية (١٩٥٠ – ١٩٥٤) ما بين مليونين وأربعة ملايين روح بشرية، وحروب فيتنام (١٩٤٥ – ١٩٧٥) ما يصل إلى ٤ ملايين روح بشرية. وكانت أكثر حروب الشرق الأوسط تكلفة هى حرب الجزائر (١٩٥٤ – ١٩٦٢) التى قتل فيها ما يقدر بمليون شخص والحرب العراقية الإيرانية (١٩٨٠ – ١٩٨٨)، التى يعتقد أن ثلاثة أرباع مليون شخص قد لقوا فيها مصرعهم. ويعتقد أن تكلفة الأرواح فى النزاع العربى – الإسرائيلى فى مجموعه منذ عام ١٩٤٨ – بما فى ذلك الهجمات الإسرائيلية على لبنان – بلغت ما بين ١٠٠٠٠٠ و ٢٠٠٠٠٠ نسمة، ويوجد أفضل تقدير للخسائر حتى منتصف السبعينات فى كتاب تريفورديبوى «النصر المراوغ: الحروب الإسرائيلية – العربية، ١٩٤٧ – ١٩٧٤» (لندن، ماكدونالد وجينز، ١٩٧٨)

الاتجاه إلى وقف الدقة التحليلية فى وجه ما يبدو تطورات سياسية واجتماعية غير قابلة للفهم، أو على الأقل فريدة فى نوعها، وبشكل ما فإن المعنى المتضمن هو ببساطة أن الشرق الأوسط لا يشبه أجزاء العالم الثالث الأخرى : فديناميات ونزاعاته وأنماط سلوكه مختلفة. وأحد صور هذا النهج ذى النزعة الخصوصية، وهو ما سندرسه بتفصيل أكبر فى الفصل السابع، هو ما أصبح يعرف باسم «الاستشراق» – زعم وجود منطقة خاصة يسودها الإسلام ولا تنطبق فيها قوانين العقلانية والأحكام المقارنة [٢]. ويقال ان الطريقة الوحيدة لفهم مسلك مجتمعات الشرق الأوسط هى من خلال تحليل «الإسلام»: أن السياسة الطبقية أو الثورات أوحتى الوعى الاجتماعى، ليست مطروحة هنا، أو أن الديمقراطية – فى كل من شكلها الليبرالى أو الاشتراكى – ليست ممكنه فى هذه البلدان. غير أن اغراءات الخصوصية ليست قاصرة على «المستشرقين»: ذلك أنها تشكل – فى صورة محوّرة بالطريقة المناسبة – جانبا كبيرا من الصورة الذاتية لدى شعوب الشرق الأوسط ذاتها.

فما من أحد يمكن أن يكون أكثر «استشراقاً» من القومى العربى الذى يتباهى بتفرد «العرب» وخصوصيتهم، ويقول ان أشكال القهر الموجودة فى الأماكن الأخرى – والقائمة على الطبقة أو الجنس أو العرق – لا تعمل فى العالم العربى. وبالمثل فان رؤيا الإسلاميين الراديكاليين فى السبعينات والثمانينات – والمتمثلة فى الخمينى وان لم تقتصر عليه – تؤكد الطابع الاجتماعى والأخلاقى المختلف لشعوب الشرق الأوسط، فالرؤيا الإسلامية تنكر – صراحة – صلاحية ما يعتبر معايير تقييم غربية، علمانية، للعالم المسلم، فمنذ بداية السبعينات، وكجزء من خيبة الأمل الواسعة فى أشكال الفكر الاشتراكى والعلمانى السابقة – ركزت أعداد كبيرة من المثقفين العرب كذلك عملها على بحث عن هوية عربية، وكشف عما قدم على أنه «التراث»، «جذور» الحضارة والتاريخ العربيين. ويمكن أن نجد حتى ماركسيين سابقين وعربا من أصل مسيحى يمجدون فضائل الحضارات العربية الإسلامية، ومن ثم فإن نزعة ماهوية ونسبية من ألوان كثيرة تسود نطاقا واسعا من مناقشة الشرق

---

٢) انظر الفصل السابع لمناقشة هذه الظاهرة فى كتاب ادوارد سعيد «الاستشراق».

الأوسط داخل المنطقة وخارجها على السواء.

وكرد فعل على ذلك نشأ – كما هو متوقع – تيار مناقض ملح – وإن كان ما يزال تابعا – وهو تيار يضرب صفحا عن الإستثنائية البادية فى الشرق الأوسط، ويسعى بدلا من ذلك إلى تشبيه التطورات فى الشرق الأوسط – دون تحفظات كبيرة – بالتطورات فى أوروبا أو المناطق الأخرى فى العالم الثالث. وهكذا ففى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين رأت كثير من الكتابات الليبرالية – العربية والتركية والفارسية والأوروبية – أن المنطقة تتقدم نحو معايير ديمقراطية أكثر قبولا. وفى الأربعينات والخمسينات والستينات صور كيان من الكتابات الماركسية – بعضه أرثوذكسي موال للسوفييت وبعضه مستقل أو ماوى و يتطلع إلى أن يكون ماديا تاريخيا فى نهجه – المنطقة بعبارات طبقية، دون اشارة تقريبا إلى عوامل القبيلة أو القومية أو الدين أو الفئة. وبدا هنا أن تعقيدات الاستشراق والماهوية الاستعمارية قد دحرت فى النهاية تماما وحقا. وفى هذه التحليلات الطبقية دفعت «البورجوازية الصغيرة» و«البروليتاريا» و «القوى شبه الاقطاعية» وغيرها بنبات إلى المركز. وإذ تجسد الأزدهار الذى قادته الأوبك فى السبعينيات وأدى إلى زيادة مثيرة فى دخول الدول المنتجة، بدا كذلك لكثير من المحللين الاقتصاديين والاجتماعيين الأكثر أرثوذكسية وكأن نمط النمو الاقتصادى فى الشرق الأوسط يمكن أن يشبه على استحياء بنمط البلدان والنماذج الأخرى. وكان هذا هو الرأى الذى تبناه البعض بشأن الليبرالية الاقتصادية فى مصر، ولم يشع مثل هذا التفاؤل قدر ما شاع فى الكتابات عن إيران حيث تواطأت كل الكتابات فى السبعينات تقريباً بقدر ما مع الأوهام الأحادية والتبريرية لبرنامج الشاه التحديثى. غير أن كلا من هذه النهج الكلية النزعة دحضه التاريخ بوضوح: فلم تشهد نهاية القرن العشرين انتصار التقدم الليبرالى أو السياسة الطبقية المتشددة أو التحديث الرأسمالى الأرثوذكسى.

فثمة مشكلات كبيرة ترتبط بكل من النهج الخصوصى والكلى: فكلاهما قد انهار إلى حد ما على صخور الواقع التجريبى، وكلاهما يستند إلى افتراضات نظرية موضع تساؤل، وكلاهما أدى بوضوح وظائف ايديولوچية. غير أن لدراسة نهجهما الايديولوچية المتنازعة أكثر من أهمية عارضة، لأن هذه الايديولوچيات قد اعتنقتها